﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا القرآن العظيم، نزل قولاً ثقيلاً، محكماً، رصيناً، على قومٍ كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، على قوم لا يرون موتاً، ولا بعثاً، ولا حياة، ولا نشوراً. قوم يقول قائلهم: إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر! يأكلون، ويتمتعون كما تأكل الأنعام وتتمتع.

فلما أراد الله بهم خيراً، بعث فيهم هذا النبي العظيم، وأنزل إليه هذا القول الكريم؛ ليخرجهم من غفلتهم، وسدرتهم، فحرك أذهانهم، وهز كيانهم، وأيقظهم من غفلتهم، ورقدتهم، ولفت انتباههم إلى ما في هذا الكون من الآيات البينات، والحجج الباهرات، ليستدلوا بها على أن الله وحده، هو المستحق للعبادة، وأنه لا يمكن أن يخلق هذا الكون سدى، ولا عبثاً، بل لحكمة بالغة. فلما قرر الله ﷻ ذلك فيما تقدم من الآيات، ختمها بآيتين، هما كالوصلة للآيات التاليات، فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾. وفي هذا ملحظ بديع! كأن الله تعالى يقول: انتبهوا! هذه الجنات الألفاف، أخرجها الله من أرض موات! فالقادر على أن يُحيي الأرض بعد موتها، قادر على أن يخرجكم من قبوركم أحياء، كما قال الله في سورة (ق)، بعد أن ذكر إنزال المطر وإنبات الجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد، قال بعد ذلك: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[ق: 11]

* قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد، فهذه جملة مؤكَّدَة، جملة تامة، ذات دلالة قوية.

و﴿ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ هو: يوم القيامة. وهذا أحد أسمائه. وأسماء يوم القيامة كثيرة جداً، وقد عدَّ القرطبي: منها ثمانين اسماً، وعدَّ ابن كثير: خمسين اسماً. وهذه الأسماء بعضها مبثوث في كتاب الله، وبعضها في سنة رسول الله ﷺ، وبعضها أوصاف أطلقها بعض العلماء. فمما جاء في كتاب الله ﷻ:

(يوم الدين)، (يوم التغابن)، (الطامة)، (الصاخة)، (يوم التلاق)، (الحاقة)، (الغاشية)، (القارعة)، (يوم الحساب)، (يوم التغابن)، (يوم الحشر)، (يوم الآزفة)،و(يوم الفصل) كما هاهنا. فهي كثيرة جداً. وهذه الكثرة ليست فقط كثرة في الأسماء، بل وفي الدلالة، فإن كل اسم من هذه الأسماء يُعطي دلالة معينة:-

فـ(القارعة)؛ لأنها تقرع القلوب.

و(الصاخة)؛ لأنها تصخ الآذان.

و(الآزفة)؛ لقربها. وهكذا في كل اسم من هذه الأسماء. فهي أعلام وأوصاف، وهذه الكثرة في الأسماء، تدل على عظيم العناية بالإيمان باليوم الآخر.

فقوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي: الفصل بين الخلائق؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل في المظالم، فينال الظالم جزاء ظلمه، ويُعوض المظلوم عن مظلمته. فالفصل يتناول كل ملتبس.

وقوله: ﴿ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ أي: أنه موعد مؤقت، قد وقته الله تعالى، وعلم زمن حصوله، ولكنه أخفاه. ولهذا اعتذر النبي ﷺ من جبريل، حين سأله عن الساعة، فقال: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ "متفق عليه[1]، فأعظم رسول بشري، وأعظم رسول ملكي، كلاهما لا يعلمان متى الساعة، كما قال الله عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النازعات42-44]، وفي الآية الأخرى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: 187]. ولما سأل أعرابي النبي ﷺ عن الساعة، متى الساعة؟ قال ﷺ: "وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟"متفق عليه[2]، فلم يقل في يوم كذا، وكذا. فالله تعالى قد أخفى عنا الساعة، إلا أنا نعلم أنها تأتي بغتة، وأنها مجهولة الموعد، وأنها شديدة الوقع. فالساعة يخاف منها المؤمنون، لتعظيمهم لله سبحانه وتعالى قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

[1] صحيح البخاري (4777)، صحيح مسلم(10).

[2] صحيح البخاري (3688)، صحيح مسلم (2639).

بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشورى: 17-18]. والساعة كما سبق، لا تأتي إلا بغتة، حتى إن النبيﷺ قال : " وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ، فَلَا يَطْعَمُهُ . وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ، فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا "رواه البخاري[٣]. فأمرها يقع فجأة، وسرعة. وقد جاء عن أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال: "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ". قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: "ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"متفق عليه[٤]. فابن آدم يتحلل، ويفنى، ويعود تراباً، ولا يبقى منه إلا عجب الذنب؛ وهو العصعص، فيحفظ الله تعالى في هذا المتبقي منه، الصفات الوراثية التي منه ا يركب الخلق.

وقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴾ هذا بيان وتوضيح، أي: أن يوم الفصل هو يوم ينفخ في الصور، وأتى بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، لتفخيمه وتعظيمه. و ﴿ ٱلصُّورِ ﴾ هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام ، النفخة الأولى، التي يكون بها الصعق، والنفخة الثانية، التي يكون بها النشر. وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: "كَيْفَ أَنْعَمُ! وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ" رواه الترمذي[٥] أي: كيف أتنعم، وأهنأ بالعيش، وصاحب القرن، إسرافيل عليه السلام، قد التقم قرنه، أي: وضعه في فيه، استعداداً للنفخ، ينتظر أن يؤمر. فالذي يذكر هذا، لا يطيب له عيش، لأنه يخشى وعيد الله عز وجل.

ففي قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴾ مشهد مهيب، رهيب، فإن البعث أمره عجيب: كل من دب على وجه الأرض، ثم مات، وتحلل فيها، يجمع الله خلقه يوم القيامة، فيُبعث الناس حفاةً، عراةً، غرلاً، بهماً، ويقومون لرب العالمين، يساقون على هيئة أفواج؛ زمراً زمراً! وتخيل هذا

---

[٣] صحيح البخاري (6506).

[٤] صحيح البخاري(4814)، صحيح مسلم(2955).

[٥] سنن الترمذي (2431) وقال هذا حديث حسن، مسند أحمد(3008) وصححه الألباني.

الحشد العظيم؛ من لدن آدم، عليه السلام، طوله ستون ذراعاً في السماء، ثم لم يزل الخلق ينقص بعد ذلك، إلى أن آل إلى ما نحن عليه، ولا ندرى إلى ما يؤول أيضاً بعدنا، في موكبٍ واحد، على صعيد واحد، على تفاوت أحجامه، وأطواله، وألوانه مع الدواب والعشار والهوام والطير وسائر المخلوقات ! وقوله تعالى: ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي: فوجاً إثر فوج، والفوج: هم الجماعة من الناس. وقارن بين تلك الصورة التي ذكرها سابقاً، من حال الدنيا واستقرارها، بقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ ﴾ وهذا الانقلاب الكوني الهائل .

ثم قال تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾: فهذه السماء التي لا ترى فيها الآن ثقباً، ولا قدر جب الإبرة، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾ [الملك 3، 4] ، فإذا بهذه السماء المحكمة، المتماسكة، المبنية، تنشق يوم القيامة، وتنفتح فيها فرج، وطرائق؛ ليهبط منها الملائكة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ﴾[الفرقان : 25]، فتنشق كل سماء، ويهبط ملائكتها، فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم. و في قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ﴾ ،و﴿ يُنفَخُ ﴾، وما بعدهما،كلها بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، وذلك من باب التفخيم والتعظيم.

قال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾، فهذه الجبال الذي قال عنها قبل بضع آيات: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾، هذه الجبال الراسيات، تسيَّر بعد أن كانت تحفظ توازن الأرض، وتضبط استقرارها. والسراب إما أن يكون المراد به الهباء، أو هو تشبيه له بالماء، وليس بماء، كالذي يراه المسافر في شدة الحر، يزول أمامه يظنه ماء، يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. فهذه الجبال تتراءى لأهل الموقف على هذه الصورة؛ كالسراب. وهذا حال من أحوال الجبال يوم القيامة، ذلك أن الجبال يمر بها يوم القيامة أحوال متعددة؛ منها التسيير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ ﴾ [النمل: 88]، حال الدك، والنسف، قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ ﴾ [طه : 105-107] وقال في آية أخرى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ ﴾ [الواقعة : 5]، أي: نثرت، ودكت، حتى تصبح كالرماد.

إلى أن يتحول وجه البسيطة قاعاً صفصفاً، ليس فيه معلم لأحد؛ ليس فيه مرتفع، ولا منخفض، بل تصبح الأرض كالقرصة المستوية .

ثم قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴾ جهنم: اسم من أسماء النار، وللنار أسماء كثيرة، وكل اسم من أسمائها يدل على وصف، وحال. ومن أشنع أسمائها ﴿ جَهَنَّمَ ﴾، وهي من الجهومة، والسواد. ومعنى ﴿ مِرۡصَادٗا ﴾ أي: مكان رصد، وترقب. فهي مترصد لا يجاوزها أهلها حتى يقعوا فيها.

وذلك أن ما من أحد، إلا ويَرِدِ على النار، يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ﴾[مريم/ 71] أي: إلا مار فوقها، وذلك حين يؤمر الناس بالجواز على الصراط، وهو من أصعب مواقف يوم القيامة، حتى قال ﷺ " وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ"متفق عليه[٦] .

أما أهل النار، الذين هم أهلها، فقد دلت النصوص على أنهم يلقون فيها؛ تجمع أيديهم إلى أعناقهم، ثم يقذفون فيها. وإنما يمر فوق الص ـراط، الموحدون. فمن سبقت له من الله الحسنى، فإنه يجوزه، دون أن يصيبه شيء. فمنهم من يمر كلمح البص ـر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من دون ذلك، ومنهم من تخطفه كلاليب على جنبتي الصراط، فتهوي به في النار، عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " ...يَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ». قَالَ قُلْتُ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى أَىُّ شَىْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ قَالَ « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِى طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِىءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا - قَالَ - وَفِى حَافَتَىِ الصِّ ـرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ

[٦] صحيح البخاري (806)، صحيح مسلم(182).

بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ "رواه مسلم[٧]. فلهذا كانت ﴿مِرْصَادًا﴾، فهي مرصد للطاغين الذين هم أهلها، وكذلك لمن أراد الله، ﷻ، أن يعاقبه بقدر ذنبه، من عصاة الموحدين.

وقوله تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ الطغيان هو مجاوزة الحد، فإذا تجاوز العبد حده كان حقيقاً بالعذاب، إلا أن يتجاوز الله تعالى عنه. والله يمكن أن يتجاوز عن كل شيء إلا عن ذنب واحد، هو الشرك، قال تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[النساء: 48]. لكن لا ريب أن مرتكب الكبيرة مجازف، مخاطر. ومعنى ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: مرجعاً، ومصيراً. فالأوب: بمعنى الرجوع، والمصير.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ معنى ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ أي: ماكثين، و ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب. والمقصود بالأحقاب: المُدد الطويلة. وقد ورد تقديرها في أحاديث مرفوعة، وموقوفة، وآثار عن بعض التابعين؛ فمنهم من قال: الحقب: ثمانون سنة، كل سنة فيها اثنا عشر شهراً، كل شهر فيه ثلاثون يوماً، وكل يوم بألف سنة. ومنهم من قال: سبعون سنة، على التقسيم السابق. ومنهم من قال: أربعون. ومنهم من قال أكثر، ومنهم من قال أقل. وعلى أي حال، فالأحقاب تدل على مدد طويلة، لكن ها هنا إشكال! فربما قال قائل: وماذا بعد الأحقاب؟ أيخرج أهل النار، الذين هم أهلها، منها، أم لا؟ فالذين فسروا الأحقاب بالمدد الطويلة، خرجوا من هذا الإشكال، بأن قالوا: المراد بأنهم ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: حقباً إثر حقب، بحيث لا يتناهى، فهو خلود مستمر، لا انقطاع فيه. وأما من قال: إن أهل النار، الذين هم أهلها، يخرجون منها بعد مدد طويلة، فربما استدل بهذه الآية على خروجهم[٨]. لكن الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة، أن أهل النار، الذين هم أهلها، أي: الكفرة، والمشركون، لا يخرجون منها أبداً؛ لأن الله ﷻ ذكر التأبيد في خلودهم، في كتابه، في ثلاثة مواضع قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

[٧] صحيح مسلم (195).

[٨] انظر شرح العقيدة الطحاوية (651/2).

يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء:168-169] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب: 64-65] وقوله ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن:٢٣]. وذهب ابن جرير الطبري، رحمه الله، إلى توجيه آخر، فقال: وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ في هذا النوع من العذاب هو أنهم ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾: فإذا انقضت تلك الأحقاب، صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك، كما قال جلّ ثناؤه في كتابه: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص: ٥٥-٥٨] وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية [٩]. فيكون هذا التحديد، بهذه المدة، يختص بلون، ونوع، من أنواع العذاب.

ومعنى ﴿ بَرْدًا ﴾: الهواء البارد، أو الماء البارد. وقيل: إن المقصود بالبرد: النوم، فإن العرب تسمي النوم برداً. وقوله: ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ هذا الاستثناء استثناء منقطع، لأنك لو رفعت ﴿ إِلَّا ﴾ ووضعت بدلاً منها (بل) صح المعنى، أي: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾ بل يذوقون ﴿ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ والحميم: هو الماء المتناهي في الحرارة، شديد الغليان، حتى إن أحدهم ، والعياذ بالله، إذا استسقى، أتي بالحميم ليشربه، فتسقط جلدة وجهه فيه، كما أخبر الله، ﷻ، عن ذلك في سورة الكهف، و غيرها، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ [الكهف: 29]، وقال: ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 15] فهذه سقيا أهل النار، والعياذ بالله، الحميم، وبئس الشراب. وأما الغساق، فقد ورد ذكره في القرآن في غير هذا الموضع، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[ص:57-58]. فالغساق، المراد به صديد أهل النار، وما يخرج من قيحهم، وجروحهم، ودموعهم، وغير ذلك من أذاهم، الذي يساق إليهم. وقيل: إن الغساق معناه: المنتن. ولا

---

[٩] تفسير الطبري (26/24).

تنافي بين المعنيين، فإنه يكون من صديد أهل النار، وقروحهم، وجروحهم، ويكون أيضاً متنناً. ووصف أيضاً بأنه بارد، فهو يأتيهم على هذه الصفة ويكون بارداً، متنناً، والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أي أن هذا الذي نالوه، إنما هو بسبب كفرهم بالله، ﷻ، ﴿ وِفَاقًا ﴾ على ما قدموا من سالف أعمالهم السيئة، والجزاء من جنس العمل. ثم علل الله تعالى، استحقاقهم لهذا العذاب الشنيع، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: كانوا في الدنيا لا يخافون، فيرجون هنا، بمعنى يخافون. وإنما فسرت ﴿ لَا يَرْجُونَ ﴾ بمعنى يخافون، لأن الرجاء جاء هنا منفياً، فإذا جاء الرجاء منفياً، فإنه بمعنى الخوف، لأنه رجاءٌ يُخاف ألا يتم. ليس المقصود يرجون أي: يتمنون ويبغون ويطلبون، كلا، بل المقصود ضد ذلك، وهذه قاعدة مطردة في القرآن العظيم. فقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي كانوا ينكرون البعث، حتى إن أحدهم، وهو أبي ابن خلف، أتى النبي ﷺ، بعظم بالٍ، ففته أمامه وقال: يا محمد! أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد أن صار رميماً ؟ قال: نعم، يبعثك ويدخلك النار [1]. وأنزل الله في شأنه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[يس: 78]

قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: إن آياتنا قد جاءتهم تلوح كالشمس؛ ظاهرةً، مبهرة، لكنهم كذبوا بها! فلا عذر لهم. وقوله: ﴿ كِذَّابًا ﴾ تأكيد، وإن كان من غير فعله، لأن (كذب) مصدره تكذيباً، لكن يصح أن يأتي المصدر من غير فعله، فقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ كناية عن شدة تكذيبهم. وقد كانوا كذلك؛ فإنه يأتيهم الحق البين، يسمعون القرآن ينزل على نبينا ﷺ، ويفلق لهم القمر فلقتين، ويأتيهم بالآيات الواضحات، فلا يزيدهم ذلك إلا كفراً، وتكذيباً.

قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ فلم يخرج عنه شيء أبداً، فكل شيء أحصاه الله ﷻ. ومعنى ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ ﴾ أي: ضبطناه، وعددناه، وحفظناه؛ لأن أحصى تأتي بمعنى العد، كقول الله ﷻ: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾[إبراهيم34]، ويأتي بمعنى الضبط، كتسمية العرب للعقل

---

(١٠) انظر تفسير الطبري (554/20).

حصاة، فهو يدل على التعقل، والحفظ، وقوله: ﴿كِتَٰبًا﴾ أي: مكتوباً، وهذا من تمام عدله سبحانه وتعالى. ولو شاء الله سبحانه وتعالى، لما كتب ذلك، لكن من باب إقامة العدل، وإظهار الحجة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف٤٩] وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:18]. فقد وكل الله تعالى بكل إنسان، ملكين، يكتبان ما يبدر منه، من قول، أو فعل، فلا يضيع شيء، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: 13]. فهذه حجة بالغة، لا يثبت لأحد اعتراض عليها، حتى أن إذا الكافر، يريد أن يتشبث بأي شيء، كالغريق الذي يتشبث بالقشة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ". قَالَ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ "مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِى مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى ". قَالَ: "فَيَقُولُ فَإِنِّى لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِى إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّى قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِا لْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا " قَالَ: "فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِى". قَالَ: "فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ" قَالَ: "ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ" قَالَ: "فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ"رواه مسلم[11]، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ يُقال إن هذه الآية هي أشد آية على أهل النار. فعن عبد الله بن عمرو، قال: "لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا"[12]، ذلك أنهم يدعون الملائكة، ويقول قائلهم ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف77]، وتقول لهم الملائكة ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

---

[11] صحيح مسلم (7629).

[12] تفسير الطبري (36/24).

[غافر:50] ، ثم يأتيهم الجواب الشديد، الذي وقعه عليهم أشد من وقع العذاب الذي هم فيه:

﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: ليس هذا فقط، بل إن عذابكم سيزداد.

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: إثبات البعث، وأهوال القيامة الكبرى.

الفائدة الثانية: إثبات الحساب، والفصل في الحقوق .

الفائدة الثالثة: إثبات النار، وذكر أنواع العذاب فيها؛ من عذاب حسي وعذاب معنوي.

الفائدة الرابعة: العدل الإلهي؛ فالجزاء من جنس العمل.